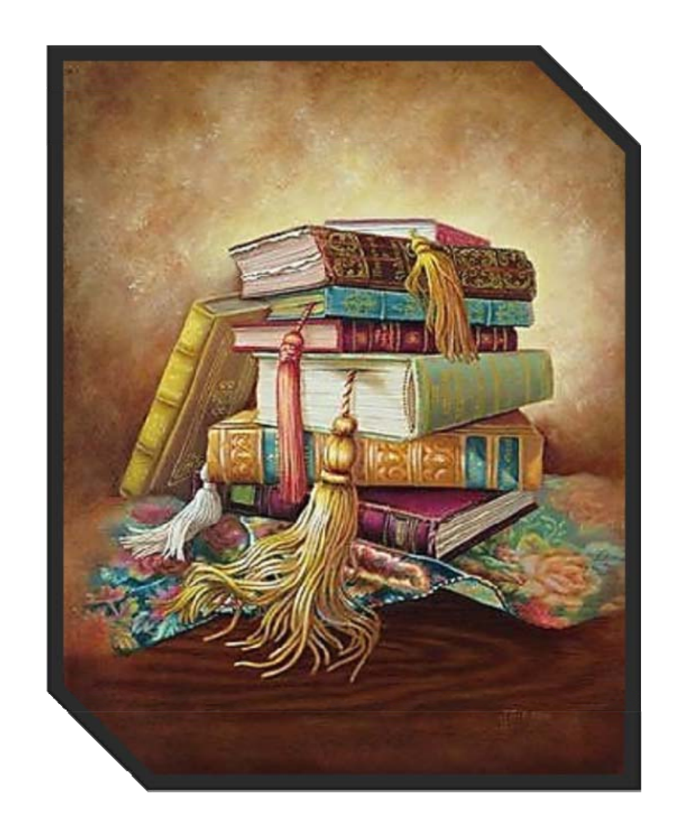


الطوبونيميا والبحث التاريخي
محاولة في تجديد آليات البحث

د. محمد البركة
أستاذ التاريخ والحضارة
الكلية متعددة التخصصات
تازة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد البركة، الطوبونيميا والبحث التاريخي: محاولة في تجديد آليات البحث.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والعشرون؛ يونيو ٢٠١٤. ص ١٢١ – ١٢٥.

مُلَخّصْ

إن دواعي البحث في العلاقة بين الطوبونيميا والتاريخ ومنه البحث التاريخي، هي على الإجمال محاولة تريد أن تعرض لأهمية أداة تبحث في قيمة أسماء الأماكن وعلاقتها بالبحث التاريخي، عبر الإجابة عن أسئلة لها قيمتها في البحث، أسئلة تساعد على إبداء ملاحظات عن تاريخ المجال اعتمادًا على اسمه أولاً، فهل يمكن اعتبار الطوبونيميا آلية من آليات البحث التاريخي، بمقدورها أن تسهم في تجديده؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون عبارة عن محاولة يائسة؟ إن محاولة الإلمام بطبيعة العلاقة القائمة بين البحث التاريخي والطوبونيميا، هي محاولة تبحث في الصلة القائمة والجسور الممتدة بين الطوبونيميا والبحث في التاريخ، انطلاقًا من البحث في الكيفية التي يمكن للبحث التاريخي، وهو يعتمد الأداة الطوبونيميا، أن يؤسس بها وعلها تلك العلاقة، وأن يكشف عن بعض الجوانب من ذاكرة المكان انطلاقا من اسمه، إنها خطوة نحو إعادة بناء ذاكرة المكان بإضاءة مكتسحة رامية للتعريف بأسماء الأماكن، خطوة لن تتحقق إلا بالاستناد على منهج علمي صارم يقوم على الدقة في توثيق المعلومة والرواية، والحفر في عمق النص المصدري عبر خطوات علمية واضحة، والتحليل المركز الساعي إلى البناء النظري عبر نماذج تمثل مظهرا من مظاهر الوعي بالمكان وذاكرته. لقد تأكد من خلال بعض الأبحاث المنجزة في الطوبونيميا، أن هذه الآلية لها حضور وصلة بل ونتائج مشتركة مع أغلب الحقول المعرفية التي منها التاريخ، ذلك بأن البحث في التاريخ أثناء استرشاده بنتائج التحري الطوبونيمي، يكون قد أعلن عن عدم استثنائية العلاقة بين الطوبونيميا والبحث التاريخي من جهة، كما يكون قد جدد المناقشة في بعض المسلمات التي يلزم أن يكون فيها النقاش مستمرًا، إذ ليس ثمة موضوعية كاملة في كتابة التاريخ، نظرًا لكون البحث التاريخي الجيد لابد أن يحمل ذاتية كاتبه، لذلك كان البحث التاريخي بحث في الفاعلية المنتجة للمعرفة القابلة للتداول.

مُقَدِّمَةُ

الطوبونيميا أداة منهجية، وآلية علمية، قد تكون لسانية تنير بعض الجوانب المعتمة من مضامين ودلالة النصوص المصدرية التي هي أساس البحث التاريخي، وقد تكون تاريخية تفيد البحث اللساني في تحديد مضامين أسماء الأماكن، ورسم مبيان التطور الذي لحق اللسان المسمى به، وتحديد صيغ كتابتها ونقلها، كما قد تكون أركيولوجيا تفيد البحث الأثري في التعرف على المواقع المندثرة، والتعريف بها، وتيسير التنقيب عنها، وقد تكون غير ذلك، لكنها في كل ذلك وغيره تعلن تواصلاً قائمًا بين العلوم، تواصل يعلن إمكانية اعتماد آلية واحدة في أكثر من حقل معرفي، نظرًا للتكامل الواقع بين العلوم، تكامل لا يفضي إلى تنازع، بل يفيد في أن آلية الطوبونيميا لا يمكنها أن تضطلع بمعرفة الخصوصية الثقافية لمنطقة ما، أو أن تحدد مدى قدرة المنطقة على التعبير على

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خصوصيتها من خلال أسماء الأماكن، أو أن تعرّف بحجم التأثير الخارجي الذي لحقها فأثر على أسماء أماكنها، أو أن تجلي أسباب التسمية في علاقتها بالمحيط...، دون أن تنفتح على علوم مختلفة وتخصصات متنوعة هي بحاجة إليها،[١] حاجة هي شبيهة بحاجة التاريخ (إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة) حسب تعبير ابن خلدون.[٢]

إن دواعي البحث في العلاقة بين الطوبونيميا والتاريخ ومنه البحث التاريخي، هي على الإجمال محاولة تريد أن تعرض لأهمية أداة تبحث في قيمة أسماء الأماكن وعلاقتها بالبحث التاريخي، عبر الإجابة عن أسئلة لها قيمتها في البحث، أسئلة تساعد على إبداء ملاحظات عن تاريخ المجال اعتمادًا على اسمه أولاً، فهل يمكن اعتبار الطوبونيميا آلية من آليات البحث التاريخي، بمقدورها أن تسهم في تجديده؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون عبارة عن محاولة يائسة؟ إن محاولة الإلمام بطبيعة العلاقة القائمة بين البحث التاريخي والطوبونيميا، هي محاولة تبحث في الصلة القائمة والجسور الممتدة بين الطوبونيميا والبحث في التاريخ، انطلاقا من البحث في الكيفية التي يمكن للبحث التاريخي، وهو يعتمد الأداة الطوبونيميا، أن يؤسس بها وعليها تلك العلاقة، وأن يكشف عن بعض الجوانب من ذاكرة المكان انطلاقا من اسمه، إنها خطوة نحو إعادة بناء ذاكرة المكان بإضاءة مكتسحة رامية للتعريف بأسماء الأماكن،[٣] خطوة لن تتحقق إلا بالاستناد على منهج علمي صارم يقوم على الدقة في توثيق المعلومة والرواية، والحفر في عمق النص المصدري عبر خطوات علمية واضحة، والتحليل المركز الساعي إلى البناء النظري عبر نماذج تمثل مظهرًا من مظاهر الوعي بالمكان وذاكرته.[٤]

لقد تأكد من خلال بعض الأبحاث المنجزة في الطوبونيميا، أن هذه الآلية لها حضور وصلة بل ونتائج مشتركة مع أغلب الحقول المعرفية التي منها التاريخ، ذلك بأن البحث في التاريخ أثناء استرشاده بنتائج التحري الطوبونيمي، يكون قد أعلن عن عدم استثنائية العلاقة بين الطوبونيميا والبحث التاريخي من جهة، كما يكون قد جدد المناقشة في بعض المسلمات التي يلزم أن يكون فيها النقاش مستمرًا، إذ ليس ثم موضوعية كاملة في كتابة التاريخ، نظرًا لكون البحث التاريخي الجيد لابد أن يحمل ذاتية كاتبه،[٥] لذلك كان البحث التاريخي بحث في الفاعلية المنتجة للمعرفة القابلة للتداول.[٦] وإذا كان البحث التاريخي بطبيعته لا يستعجل الإعلان عن نتائجه، لأنه بحث في المعرفة بالخبر عن الواقع،[٧] فإن المقاربة الطوبونيميا بدورها لن تستعجل في إبراز ثمارها، نظرًا لعلمها المسبق بكون الطوبونيميا آلية محفوف بالصعوبات المنهجية التي قد يصطدم بها الباحث أثناء قيامه بعملية ضبط أسماء الأماكن، وفك لغز معانيها.

أولاً: الطوبونيميا وآليات البحث التاريخي

لما كان التاريخ هو آثار حركة الإنسان في الزمان على المجال تفاعلاً مع الفكرة، وكان المجال هو وعاء حركة هذا الإنسان، صار لا بد من التعرف عن أسماء الأماكن، لأن قيمة المجال لا تتم بغير ضبط اسمه والتعريف بآثار حركة الإنسان عليه، تيسيرا لمقارنتها بآثار حركة الإنسان في مجال آخر، بحثًا ليس عن التفاضل، بل عن تبدل الطبائع في علاقتها بالبقاع، إذ المؤرخ حسب ابن خلدون محتاج إلى (العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السيّر والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال).[٨] وبما أن أسماء الأماكن هي مفتاح التعرف على تاريخ المجال وطبيعته وثقافته وتطوره...، كان لا بد أن ينصب الاهتمام على الطوبونيميا، انطلاقًا من أن اختيار أسماء الأماكن لا يمكنه أن يكون فعلاً فجائيًا أو اعتباطيًا، بل هو فعل قصدي يستمد أصله من طبيعة الملمح الثقافي المهيمن (أصالة أو استثناءً) على ثقافة ساكنة ذلك المجال خلال حقبة محددة، واختيار قصدي إرادي أو قسري يعرف بطبيعة السلطة المهيمنة على المجال خلال تلك الحقبة.[٩]

والاهتمام بإضافة آليات أخرى للبحث التاريخي هو اهتمام بأداة موصلة لصناعة المعرفة العلمية بالماضي الإنساني مبنية على طرائق منطقية ومناهج علمية قصدها فهم الماضي بكل أبعاده، وهذا يعني إضافة قراءة أخرى للنص المصدري، مما يدل على أن البحث في "علاقة الطوبونيميا بالبحث التاريخي" ضرورة هامة للإفصاح عن عمق أهمية المقاربة الطوبونيمية وآثارها على البحث التاريخي من جهة، وضرورة عامة للتعريف بقدرة النص المصدري على التعبير عن مضامين جديدة من جهة أخرى، إذ المعرفة التاريخية لا يمكنها أن تنطلق في البدء دون تأطير أو تحديد للمكان، وأول معرفة بالمكان ضبط اسمه وتطوره. على أنه وبالرجوع إلى الاسطوغرافيا، سواء للبحث عن قيمة المكان واسمه وتطوره في مضامين بعضها، أو بالبحث عن الجانب المعرفي الدافع إلى التفاعل مع المجال في أغلب أبعاده، يمكننا أن نقول، إن الاسطوغرافيا لم تكن لتتجاهل المجال، بل لم تكن لتبتعد عن البحث في بعض جوانبه ولو على سبيل الاستئناس والتمهيد، وهذا يعني أن الاعتناء بالمكان أو بالمجال ظل حاضرًا في أغلبها، وهو دليل على وعيها بأهميته في المعرفة التاريخية أصلاً ووصلاً، وفي البحث التاريخي تأطيرًا وضبطًا، وفي وعي المؤرخ تفاعلاً وحسًا.

إضافة إلى ذلك، فإن الاسطوغرافيا التقليدية لم تكن لتتجاهل المكان أو المجال، إذ جعلته جزءًا من عنوانها أحيانًا، وهو ما يعني أنها كانت شاهدة على زمانها، من خلال التعبير عن تفاعل مؤلفيها مع المجال والمكان معرفيًا، ويظهر ذلك من خلال تركيزها على أسماء وحدود بعض الأماكن، واختلاف أسمائها، وتشابه بعضها، وكل هذا وغيره من القضايا المنهجية التي تهم الطوبونيميا والبحث التاريخي. وبما أن تحديث الكتابة التاريخية وإعادة الاعتبار للمعرفة التاريخية

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بكل مكوناته، لا يتوقف عند الاشتغال على مسار واحد، سواء كان مسارًا سياسيًا أو عسكريًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا...، بل يستلزم الاشتغال بكل المسارات الممكنة دون نسيان مسار أو تغليب واحد منها، والبحث عن مسارات جديدة تكشف عن المفقود من التاريخ تحقيقًا للتراكم المفضي لتلمس الواقع التاريخي كما كان، فإن الاهتمام بالطوبونيميا لا يعدو أن يكون مظهرًا من مظاهر تتبع مستجدات المعرفة التاريخية،[١٠] تتبع يبقى قاصرًا إذا ما بخس أو قلل من القيمة المنهجية للأبحاث التاريخية المنجزة، لأن أي كتابة تاريخية يفترض عدم خلوها من أفكار واقتراحات منهجية، لأنها تعرض لمستجدات المعرفة التاريخية، ومن ثَمَّ فالدعوة قائمة فقط لتلمس الجانب المنهجي منها، وتقييمه وتعزيزه وتوجيهه.

كما أن عدم اهتمام البحث التاريخي بالطوبونيميا في لحظة زمنية معينة لا يمكنه أن يكون دافعًا لنعت البحث التاريخي بالفقر المنهجي، فذلك حكم أحادي، إذ البحث التاريخي المنتج للمعرفة التاريخية عبر الكتابة التاريخية بكل شروطها هو سلسلة متواصلة، من خصائصها التراكم. وبسط سؤال الطوبونيميا لا يمكنه أن يكون إلا نتيجة لحالة تراكم هذه الأبحاث المنجزة، وما تحويه من جانب منهجي. إضافة إلى أن منطق التكامل بين العلوم ودوره في الكشف عن خبايا حقل معرفي معين، يمنح للباحث ضمنًا قوة القول بوجود منطق التكامل بين كل الموروث الاسطوغرافي في الكتابة التاريخية، وبوجود منطق التكامل بين كل الأبحاث التاريخية، حتى تلك التي اكتفت بالجمع ولم تُقْدم على جهد التأويل والتركيب، وهذا يعني أن الطوبونيميا ليست مفصولة الولادة عن باقي العلوم الأخرى، وليست آلية ضيقة العلائق يقتصر دورها في إبراز معاني ودلالات أسماء الأماكن، بل إن الطوبونيميا بحث في التاريخ الاجتماعي، لكونها تبحث في الدوافع المعلنة أو المضمرة وراء تسمية الأماكن؛ وهذا بحث في الذهنيات، وهي بحث في التاريخ السياسي، لكونها تبحث في رمزية السلطة السياسية وقوتها في فرض رموزها عبر أسماء الأماكن، وهي بحث في التاريخ العسكري، لكونها تبحث في رمزية أسماء المواقع والمعارك، وقدرة الغالب على رسم تاريخ المغلوب وغير ذلك، مما يجعل الطوبونيميا وسيلة وليست غاية، أي أنها آلية من آليات البحث التاريخي، وليست غاية من غاياته، فهي رهينة بالتعرف والانفتاح على بقية الأطرف المتفاعلة.[١١]

لذلك قلنا، إن من مكتسبات البحث التاريخي أنه ينفتح على العديد من الآليات التي منها الطوبونيميا، ويسعى إلى تجديد أدواته، التي غالبًا ما تكون دافعه للبحث عن آليات أخرى، انطلاقًا من أسئلة متكررة يرصدها الباحث عند كل كتابة أو تأليف أو قراءة...، ومن ثم فإن الكد الاستقصائي والجهد التجميعي لأسماء الأماكن خطوة تدعو إلى جرأة التركيب، من أجل إغناء المقاربة الطوبونيميا عبر تجديد الأسئلة والحوار بين مختلف زوايا الملاحظة ومستوياتها.[١٢] لقد أبانت العديد من الأبحاث، أنها لا تخلو من أسئلة ترتبط بأسماء الأعلام الجغرافيا، إذ ورغم إجابتها عن هذا العَلَمِ أو ذاك، إلا أنها لا تنتظم في تصور صارم يتجاوز عملية الرصد الجزئي إلى الرصد والتحليل والتركيب الكلي، هذا التركيب الذي يقوي البعد المنهجي للبحث التاريخي، ويمنحه صفة التطور والمواكبة للكتابة التاريخية على قاعدة تراكم المكتسبات المنهجية. فاهتمام البحث التاريخي مثلاً بالتحقيق، مكنه من عرض أسئلة كثيرة تتعلق بضبط الأعلام الجغرافيا، سواء لاختلاف رسمها من مصدر إلى آخر أو في المصدر نفسه، أو لاختلاف معناها بين مصدر وآخر، أو لاختلاف مطابقة اسم الدال والمدلول بين المصادر، وهذا من الاهتمام بالطوبونيميا. كما أن اهتمام البحث التاريخي بالمونوغرافيا أسهم من جانبه في إبراز أهمية ضبط الأعلام الجغرافيا وتحديدها، وهذا كذلك من الاهتمام بأسماء الأماكن، مما يعني أن حضور المقاربة الطوبونيميا في البحث التاريخي أمر وارد، وأنه لا تعارض بين ضبط الأعلام الجغرافيا، وبين الجمع بين أجزاء عملية الضبط عبر عمل تركيبي وإن كان تنظيري، مادام العمل التنظيري قائم على نتائج التحري الطوبونيميا من جهة أولى، وعلى تركيب نتائجه من جهة ثانية، وهذا من الوعي الابستمولوجي بقيمة الطوبونيميا، وتميزها الإضافي عن غيرها من الآليات الأخرى المساعدة للبحث التاريخي في محاورة عمل المؤرخ، كما هو الشأن بالنسبة لباقي العلوم الإنسانية مثل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، وغيرهما من العلوم التي تتيح إمكانية إعمال "المقاربة المركبة"[١٣] بين نتائجها.

إن التاريخ بما هو حقل معرفي شاسع، سيظل دائمًا في طور التشكل، بل متجدد التشكل، لأن بنيته بطبيعتها تراكمية، لا تقف عند العملية التوثيقية، بل تتجاوزها إلى صياغة الإشكاليات،[١٤] أي أنها تتجاوز المجهود الوصفي التحليلي إلى المجهود التركيبي، الذي لا يكون الداعي إليه في غالب الأحيان هو غنى الرصيد الوثائقي أو حتى التمكن من الاستيعاب النقدي للمناهج الحديثة، بل الداعي إليه هو الارتباط بمشروع علمي، وهمٍّ منهجي يؤطر ويحفز جل الأبحاث التاريخية، وينظمها في نسق واحد، وهذا ما يجعل عرضنا للطوبونيميا ضمن هذا السياق، عرض لأداة من أدوات البحث التاريخي، أداة هي بالنتيجة إسهام في إغناء البحث التاريخي، لكنها في المبتدأ نتاج نقاش منهجي لا يمكن للمؤرخ أن يغفل عنه أو أن يتجاوزه. فأسئلة البحث التاريخي رغم كونها قد تحيلنا في جانب منها على طبيعة القضايا التي يمكن معالجها، لكنها في نفس الوقت تحيلنا على قضايا جديدة وآليات فريدة، أثناء مناقشة أجوبة تلك الأسئلة، إنها ظروف إنتاج وتداول المعرفة التاريخية، عبر الكتابة التاريخية التي هي صناعة متجددة لعلاقة المجتمع بذاكرته الجماعية،[١٥] وعبر الآليات المتعددة التي منها آلية ضبط المصطلحات التاريخية. إذ المصطلحات مفاتيح المعرفة التاريخية وأساس وجودها، كما الأسماء التي هي مفاتيح الكتابة التاريخية وجزء منها.

علمية. عالمية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ثانيًا: الطوبونيميا وتجديد البحث التاريخي

إن البحث التاريخي لا يمكنه أن يواكب أسئلة الحاضر ويساعد على فهمها والجواب عنها على ضوء فهم الماضي، دون حركية منهجية أساسها الحوار العلمي، ودون جرأة للمؤرخ في معالجة قضايا تنبع من المشروع العلمي عبر الصياغة التاريخية لمشاغل المجتمع والعصر،[١٦] صياغة تُعمل الجهد في تقصي المعطيات من مصادرها اعتمادًا على أساليب التعامل النقدي، وانفتاحًا على حقل العلوم الإنسانية، الذي يعتبر الاهتمام بالطوبونيميا أحد ثماره. ذلك بأن التاريخ بما هو معرفة منضبطة يحدد ملامحها الممكنُ من الشواهد، والمتوفرة من شروط التأليف، والمتخيل من التصورات حول الإنسان والمجتمع، والمتخير من الاختيارات المنهجية الصريحة أو الضمنية، هو بحث يرافق الباحث فيه كتابة عبر محطات الماضي فيوجهه، ويوشم واقعه الفكري بملاح ومظاهر معبرة عنه،[١٧] مما يدل على أن العلاقة متبادلة بين الواقع الفكري والبحث التاريخي، إذ كلاهما يؤثر في الآخر، فينتج عن ذلك تراكم يعبر في بعض جوانبه عن الرغبة في التجديد، وتدقيق المفهوم وتوسيع العلائق، عبر تجديد آليات الاستنطاق لمضمون النص المصدري.

وانفتاح البحث التاريخي على كل ما يجدد أسئلته، ويعيد صياغة مسلمات نتائجه، ويفكك مسارات التأويل لديه، ويكسر هيمنة العامل الواحد عنده، ويثبت خطوات التوثيق لديه، ويسهم في جمع الشذرات المنثورة من أعماله، كل ذلك وغيره من شأنه أن يسهم في الحفاظ على الحد الأدنى من الجودة والمصداقية العلمية في الكتابة التاريخية، لأن الرغبة في تجديد البحث التاريخي خطوة لا تتنكر لمجموع التراكم الحاصل سابقًا، ولا تنطلق من فراغ لبناء جدته، ولا تعلن كمالها وتمامها في هذا التجديد، كما أنها ليس خطوة وليدة تفاعلات فكرية عند الباحث الواحد، بل هي وليدة شروط البحث وآفاقه، شروط تنقل البحث من العموميات، وتساعده في التدقيق والإجابة عن العديد من الأسئلة ذات العلاقة بأغلب العلوم الإنسانية والأدوات المنهجية، أسئلة تبحث في الكيفية التي ينظر بها الإنسان إلى أسماء الأماكن، وطبيعة التصور الذي يحمله عن المكان ولواحقه، وسمة المنهج الذي يساعده على ضبط الاسم وتأويلاته، وهذا وغيره يعطي للباحث مشروعية التنقيب عن أسماء الأعلام الجغرافيا، ويبرر له مسار اختبار تجديد البحث التاريخي عبر أدوات جديدة.

إن إعادة النظر في أدوات البحث التاريخي بالانفتاح على أدوات جديدة، بإمكانه أن يتمم أو يعيد النظر في العديد من القضايا التاريخية، وعبرها الكتابة والتأليف التاريخيين، وهذا يعني أن انفتاح الكتابة التاريخية على الطوبونيميا من شأنه أن يعرض لقضايا ظلت تحت الظل، ولأسئلة كانت غير معروضة من قبل، من قبيل لماذا اهتمت الاسطوغرافيا التقليدية بالمعاجم الجغرافيا؟ ولماذا اهتمت بأسماء بعض الأماكن دون أخرى؟ ولماذا رسمت بعض المصادر التاريخية أسماء الأماكن مقرونة بشرحها؟، ولماذا جاءت أسماء أخرى جامعة بين اللسان الأمازيغي أو غيره والخط العربي؟.. لذلك فالتصور المنهجي الذي نستمده من دعوة أحد الباحثين،[١٨] هو كون مهمة المؤرخ لم تعد تقتصر على الرغبة في تجاوز النقص الحاصل في المصادر من خلال انفتاح المؤرخ على وثائق أخرى تحت مسمى الوثيقة الشاملة، بل يتعداه إلى الرغبة في تجاوز القراءة السطحية للوثيقة إلى قراءة أعمق تعتمد على علوم ومناهج وآليات أخرى، نظرًا لأن مشكلة البحث التاريخي لا تنحصر في طبيعة الوثيقة أو مضمونها، بقدر ما تمتد إلى طبيعة قراءة مضمون الوثيقة، أي الترابط الموجود بين المضمون والقراءة من جهة أولى، وبين مجموع القراءات للمضمون الواحد من جهة ثانية، وهذا الانفتاح لن يتحقق إلا باتساع مساحة الاستمارة والاستنطاق للوثيقة، وذلك ببسط أكبر عدد من الأسئلة تجاوبًا مع مضمونها وطبيعتها،[١٩] وإثراءً لإشكالاتها التي يقصدها المؤرخ ويبحث عنها.

والترابط المقصود بين مجموع القراءات المقدمة لمضمون الوثيقة الواحدة، يعني أن تنوع زوايا القراءة للوثيقة باستطاعته أن يقدم نتائج لن تكتمل قوتها ولن تصمد رجاحتها إلا بالربط بينها، بغرض الوصول إلى القراءة والمضمون الراجح، (لأن النصوص ليست أدوات شفافة)،[٢٠] بل هي نصوص لها مستويات عديدة في الإفصاح، تمتد من الظاهر إلى الباطن عبر ما يسمى بمستويات قراءة الوثيقة، إذ كلما نفذت القراءة إلى مستوى أول، أمكنها الوصول إلى مستوى أعمق، وهذا لن يتأتى إلا بامتلاك أدوات ومنهاج الغوص في النص على اختلاف أنواعه. على أن انفتاح البحث التاريخي على الطوبونيميا لا يمكنه أن يشترط نوع المصادر التي يلزمه الرجوع إليها، لأن كل المصادر على اختلاف أنواعها هي مصادر للطوبونيميا، والرجوع إليها جميعها يكسر بديهيات لحقت بهذه المقاربة، بديهيات مفادها أن الطوبونيميا لا تعتمد إلا على كتب الجغرافيا والرحلات، أو أن الطوبونيميا هي بحث لا فائدة منه، مادامت أسماء الأماكن مسلمات يتم تداولها تيسيرا للتواصل...، وتلك من المسلمات التي وجب هدمها، نظرًا لكونها قيود لا تفتح النص على الصريح من أسماء الأعلام الجغرافيا، رغم اختلاف رسمها، إذ الاختلاف في رسم اسم المكان من مصدر لآخر هو معنى يبرز بعضًا من التصور المتحكم عند المؤلف في كتابته وعرضه، بل يعكس تصورًا عند المؤلف على أسماء الأماكن، وهذا عمق ما قد تصل إليه الطوبونيميا أثناء انفتاحها على القراءات المتعددة.[٢١]

إن جاذبية الاهتمام بالطوبونيميا لا تقف عند البحث عن أصول أسماء الأماكن ومعانيها، بل تتجاوز ذلك إلى محاولة البحث عن المضامين الذهنية الكائنة وراء اختيار الأسماء، وكذا المضامين الذهنية الكائنة وراء تقبل وتداول أسماء الأماكن، وهذا من التجديد الذي قد يحمله الاهتمام بالطوبونيميا، إذ الجدة ليست في الاهتمام بهذه الآلية فحسب، بل في صبر أغوارها وجعلها تنفتح على قدر كبير من مجالات وقضايا البحث التاريخي، إنها الاستفادة

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الكائنة والممكنة من الطوبونيميا الناتجة عن المعرفة المواكبة لأساليب البحث التاريخي المعاصر، مما يجعل الطوبونيميا في علاقتها بالبحث التاريخي أداة تركيبية في آخر المطاف، تزداد صرامتها ويتأسس بناؤها كلما تكاثر الاهتمام بأسماء الأماكن من داخل أغلب الدراسات والأبحاث، لأنها كلها فعل تراكمي لجزئيات متناثرة، فعل يعطيها بناءً نظريًا تتحسس مصداقيته كلما ارتفع حجم المعرفة الموثقة بأسماء الأماكن، فكل مجهود توثيقي لا بد له من آفاق التأويل والتركيب، عبر الخلخلة والحوار، أي أن العلاقة بين التوثيق والتأويل هي في الأصل علاقة إنصات مبدع، وحوار منتج، دافعه الهاجس المنهجي.

خاتمة

وهكذا؛ يكون البحث التاريخي عند رجوعه إلى الطوبونيميا بغرض ضبط أسماء الأماكن واستيفاء مضامينها من أغلب المصادر، قد وثق لشواهد لم تؤرخ عن قصد، فهي شواهد غير مقصودة لكنها غير نادرة، لأنها شواهد منثورة في كل المصادر، وهذا ما يجعل الطوبونيميا بالنسبة للبحث التاريخي شواهد تاريخية غير مقصودة التأريخ، لكن لها مصداقيتها على مستوى التوثيق، وإن اختلف في معانيها عند مستوى التأويل، لأن الطوبونيميا بما سلف تبيانه في علاقتها بالبحث التاريخي، ليست قضية معرفية أو منهجية إلا في مستوى من مستويات الاستمرار والتراكم، والبحث فيها عمل قاعدي توثيقي تجميعي بالمستوى لأول، ورغم ذلك لا يُكتفى فيها بتكثيف أو جمع المعطيات من الوثائق، ولا يتم الوقوف فيها عند تعميق الفرضيات والإشكالات، بل يتجاوز ذلك إلى استحضار هاجس الفهم وإعمال العقل لضبط أسماء الأعلام الجغرافيا، وهذا ما يفرض إقامة الحوار المعرفي المنهجي في مسالك استفادة البحث التاريخي من الطوبونيميا، وتعزيز المقاربة التاريخية بهذه الآلية، استنادًا على معطيات التحري المصدري. على أن يظل الهاجس المنهجي المعلن عنه في هذا المقال سببًا في التركيز على عرض هذه الآلية وتقديمها، لأن المؤرخ مطالب بتوسل كل الأدوات المساعدة في فهم الماضي، والانفتاح على كل المفاتيح الممكنة، والبحث في أغلب مظاهر وصور التعبير عن الماضي في المصادر على تنوعها.

الهوامش:

(١) البركة محمد وآخرون، **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافيا (مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق)**، إفريقيا الشرق، البيضاء، ط١، ٢٠١٢: ٥.

(٢) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر القاهرة، (د.ت): ١/ ٢٩١.

(٣) القبلي محمد، **جذور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م: ٥.

(٤) البركة محمد وآخرون، **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي**: ٨.

(٥) سركيس إحسان، **التأويل التاريخي ودور الفرد**، دار دمشق، بيروت (د.ت): ٩.

(٦) العظمة عزيز، **الكتاب التاريخية والمعرفة التاريخية: مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي**، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م: ١٤.

(٧) العظمة عزيز، **الكتاب التاريخية والمعرفة التاريخية**: ١٢.

(٨) ابن خلدون، **المقدمة**: ١/ ٣٢٠.

(٩) البركة محمد وآخرون، **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي**: ٥.

(١٠) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة: أوراش في تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط١، ٢٠١٢م : ١٠.

(١١) القبلي محمد، **الدولة والولاية والمجتمع في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط١، ١٩٩٧م: ٧.

(١٢) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ٥٨.

(١٣) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ٥٩.

(١٤) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٧.

(١٥) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٥.

(١٦) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٨.

(١٧) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٠٩.

(١٨) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١١٥.

(١٩) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٢٠.

(٢٠) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٢١.

(٢١) السبتي عبد الأحد، **التاريخ والذاكرة**: ١٢٢. ١٢٤.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449